العلامة الجليل الأستاذ الرئيس محمد كرد علي

(١٨٧٦– ١٩٥٣م)

(١٢٩٣– ١٣٧٢هـ)

في ذكرى مرور خمسين سنة على وفاته

الدكتور شاكر الفحام

يقيم مجمع اللغة العربية هذا اللقاء الكريم في ذكرى مرور خمسين سنة على وفاة فقيدنا الغالي العلامة الجليل الأستاذ الرئيس محمد كرد علي مؤسس المجمع، والرائد المصلح الذي وقف حياته وقلمه يستحث الشعب للنهوض والمشاركة الجادة في مسيرة العلم والثقافة، واللحاق بركب الحضارة، والتطلع إلى غدٍ مشرق يصل به ماضيه الزاهر الذي غمر الدنيا بما أنجز وقدّم.

وقد واصل الأستاذ الرئيس العمل ليل نهار في سبيل تحقيق دعوته، لا يملّ ولا يسأم، يتحدث محاضرًا، ويحبّر المقالات في الصحف والمجلات، ويؤلف الكتب المتنوعة في موضوعات شتى، ترمي كلها إلى تبيان مميزات الحضارة العربية الإسلامية، وتحريك الجماهير لتستأنف نشاطها الثقافي والعلمي، والإفصاح عن خصائص اللغة العربية المبينة التي يجب التمسك بها، والدفاع عنها، والكشف عن دعاوى أعداء الأمة المبطلين الذين أفاضوا في مهاجمة لغتنا المعطاء، رمز هويتنا، والمقوّم الأساسي لشخصيتنا، ونادوا بأنها لا تصلح

للتعبير عن منجزات العصر ومتطلبات المعرفة، لأنها لغة قديمة، وافتنّوا في الطرائق التي توصلهم إلى أهدافهم، وطبقوا خطتهم في الدول العربية والإسلامية التي خضعت لاستعمارهم.

ثم يبسط معطيات الحضارة الحديثة، وما حققته من تقدم، ويدعو إلى الإفادة منها بالعمل والدأب والإكباب على العلم قاعدة النهوض الأولى، وإقامة مؤسساته.

لقد أعدّ واستعدّ للقيام بمهمته، وقرأ الكثير الكثير من كتب التراث العربي، والكتب الحديثة العربية والأجنبية، أهّلته لذلك معارفُه الواسعة ومواهبه، وإتقانُه اللغة الفرنسية واللغة التركية فاستعان بهما للقيام بمهمته على الوجه الأمثل، وكانت القاعدة التي جرى عليها والتزمها هي أن يقرأ أكثر مما يكتب، وألا يدوّن موضوعًا إلا بعد أن يتقنه بحثًا ودرسًا (خطط الشام ٦: ٣٣٥).

وقد أُوتي ذاكرة قوية تمدّه بما يشاء مما قرأ وعرف، وتلبّيه محدّثًا ومؤلفًا بما يرغب. أما أسلوبه فكان سهلاً قريبًا لا تكلف فيه، يؤدي معناه واضحًا بيّنًا لا لبس فيه ولا غموض.

* * *

وإني مكتفٍ بكلمةٍ متواضعة قصيرة أشارك إخواني في الاحتفاء بهذه الذكرى تكريمًا لمؤسس المجمع الذي أرسى قواعده، وجعل منه منارةً هادية.

ولد الأستاذ محمد كرد علي بدمشق سنة ١٨٧٦م، وكان جده محمد قد قدم من السليمانية شمالي العراق، فأحبَّ دمشق واستوطنها. أما أبوه عبد الرزاق فعمل في التجارة. ودرس محمد كرد علي دراسته الأولى في المدارس

الرسمية، ثم دخل المكتب الرشدي العسكري، فدرس مبادئ التركية، وأتاه والده بمعلم إلى الدار ليدرس الفرنسية، فبقي معه ثلاث سنين، فبرع بالترجمة من الفرنسية إلى العربية وبالعكس، مما أتاح له، بعد إحراز شهادة المكتب الرشدي، أن يعين مدة ست سنوات (١٨٩٢– ١٨٩٨م) موظفًا في قلم الأمور الأجنبية، أتقن فيها آداب اللغة التركية، وأخذ ينشئ باللغتين التركية والفرنسية. وقد اختلف إلى مدرسة اللعازاريين حولين كاملين للاضطلاع بآداب اللغة الفرنسية والتمكن منها، ودرس الطبيعيات ودروس الكيمياء بالفرنسية ليزداد تمكنًا منها (خطط الشام ٦: ٣٣٣– ٣٣٤).

كما درس الآداب العربية والعلوم الإسلامية، واتصل بالأساتذة الشيخ طاهر الجزائري والسيد محمد المبارك والشيخ سليم البخاري، وأخذ عنهم وعن غيرهم من العلماء كل ما وسعه قراءتُه من كتب اللغة والأدب والبيان والاجتماع والتاريخ والفقه والتفسير والفلسفة، وظلَّ طوال حياته يذكر ما أفاد من أستاذه الأكبر الشيخ طاهر الجزائري الذي ظل يلازمه منذ أن اتصل به إلى أن ذهب إلى ربه حميد الذكر والأثر (سنة ١٣٣٨هـ/ ١٩٢٠م). ومن وفائه له أن ترجم له ترجمة واسعة في مطلع كتابه «كنوز الأجداد»، وصدّر كتابه بكلمة إهداء إليه قال فيها: «إلى روح من أشربَ قلبي حبَّ العرب، وهداني إلى البحث في كتبهم، صدر الحكماء سيدي وأستاذي العلامة الشيخ طاهر الجزائري أهدي كتابي كنوز الأجداد»، كما ترجم له في كتابه «المعاصرون». ويقول الأستاذ الرئيس متحدثًا عن والده يذكر فضله في تعليمه: «ووالدي، وكان عاميًا يقرب من الأمية، أنفق عن سعة ليعلّمني، فكان مدة سنين يدرُّ الرواتب على أساتذتي، وقد ابتاع لي خزانة كتب كانت تعدُّ في ذلك العهد

شيئًا في بلدتي» (خطط الشام ٦: ٣٣٤).

وأشار إلى أنه أُولع بعد درس المطبوع من كتب الأدب العربي وجانبٍ من المخطوط، بكتب الفلاسفة وعلماء الاجتماع، وأصول الشعوب ومدنياتهم.

وأُغرم بالصحافة التي وجد فيها متسعًا للإفصاح عن آرائه والدعوة إليها، تعلّق بها وهو في سنّ مبكرة، وأخذ يطالع في صحفٍ ومجلات عربية وفرنسية وتركية، ثم عُهد إليه في سنة (١٣١٥هـ/ ١٨٩٧م) أن يحرّر أول جريدة ظهرت في دمشق، واطّرد صدورها مدة، واسمها (الشام)، وكانت تصدر أسبوعية، فكانت مدرسته الأولى في الصحافة، وساعده في عمله معرفته التركية والفرنسية. وبقي ثلاث سنين في تحرير (الشام) لقي فيها المتاعب، وكان يؤلمه كابوس المراقبة (المذكرات ١: ٥٠– ٥٣).

ودُعي إلى المؤازرة في مجلة المقتطف المصرية أكبر المجلات العربية، ونشر فيها بحوثًا جمة في التاريخ والاجتماع والأدب مدة خمس سنين، وامتدت شهرته لمنزلة هذه المجلة إذ ذاك بين أبناء اللغة العربية (خطط الشام ٦: ٣٣٥).

ثم سافر إلى مصر سنة ١٩٠١ للسياحة، فعرض عليه صاحب جريدة «الرائد المصري» نصف الأسبوعية أن يحرر في جريدته فقبل «متكارها»، ولم يطل مقامه في مصر، فعاد بعد عشرة شهور إلى دمشق، ويقول في رحلته هذه: «ومن أعظم ما استفدته من رحلتي هذه الأخذُ عن عالم الإسلام والإصلاح الشيخ محمد عبده، وحضور مجالسه الخاصة والعامة» (خطط الشام ٦: ٣٣٥، المذكرات ١: ٥٥).

ويقول في موقفه من الصحافة: «وكلما طال العهد بالصحافة زدتُ بها

ولوعًا حتى بلوت فيها الحلو والمرّ في مصر والشام» (المذكرات ١: ٥٢).

وبدأ التضييق على محمد كرد علي يزيد في دمشق كلما استفاضت شهرته، فهبط مصر للمرة الثانية سنة ١٩٠٥م، عازمًا على إصدار مجلة شهرية باسم «المقتبس» تبحث في العلوم والآداب، فأصدرها في غرة محرم سنة ١٣٢٤هـ)١٩٠٦م)، وتولى معها رئاسة تحرير جريدة «الظاهر» اليومية، وبعد سنة عُين أمين سر تحرير جريدة «المؤيد»، ويقول الأستاذ محمد كرد علي: «والجرائد الثلاث التي توليتها في مصر هي: «الرائد المصري» و«الظاهر» و«المؤيد»، وكانت من الصحف التي تصدع بالوطنية المصرية، وتنتقد سياسة المحتلين، ولذلك كثر أصدقائي من الوطنيين المصريين، فعددت بهم مصر وطني الثاني» (خطط الشام ٦: ٣٣٧، المذكرات ١: ٥٦– ٦٠).

ولما حدث الانقلاب العثماني (١٩٠٨م) رجع إلى دمشق، وأصدر في ١٧ كانون الأول ١٩٠٨ جريدة المقتبس يومية سياسية، وكان «المقتبس السياسي» أول جريدة يومية صدرت في دمشق (المذكرات ١: ٦١). أما مجلة المقتبس الشهرية التي صدرت في القاهرة لثلاث سنين ونشرت ثلاثة مجلدات (١٩٠٦– ١٩٠٨)، فقد تابع إصدارها أيضًا في دمشق، فأصدرت خمسة مجلدات (من الرابع إلى الثامن/ ١٩٠٩– ١٩١٤م)، وجزأين من المجلد التاسع: الأول والثاني، وقد صدرا سنة ١٩١٧م. وذكرت مجلة المقتبس في المجلد الثامن (ص ٤٨١) أن المقتبس يصدر بعد انقطاع حولين، وكان صدوره سنة ١٩١٤.

وكان لمجلة المقتبس وجريدة المقتبس شأن كبير في الحركة الثقافية وتحريك النشاط الاجتماعي. وشارك مجموعةٌ طيبة من الكُتّاب العرب في إغناء مجلة

المقتبس ببحوثهم ومقالاتهم، وحلَّت منزلة رفيعة بين المجلات العربية الثقافية.

لم يُقدَّر لمجلة المقتبس أن تصدر بعد توقفها سنة ١٩١٧م، أما جريدة المقتبس فقد واصلت صدورها. ويقول الأستاذ محمد كرد علي إنه أغلق جريدة المقتبس في عهد الانتداب الأول (المذكرات ١: ٦٢- ٦٣).

* * *

في السنة الأولى من عودة الأستاذ محمد كرد علي إلى دمشق (١٩٠٨م) اتهمه الوالي بقضايا اضطرته إلى مغادرة البلاد والسفر إلى فرنسا (شتاء سنة ١٣٢٧هـ/ ١٩٠٨- ١٩٠٩م)، وقضى الوقت في باريس يدرس مدنيتها، ويستفيد من علمائها وساستها، واطلع اطلاعًا حسنًا على حركتها العلمية والسياسية، واختار بمشورة الفيلسوف الفرنسي اميل بوترو مجموعة من أمهات الكتب التاريخية والاجتماعية والأدبية والاقتصادية، طالعها مطالعة درس وبحث، وهو يقول في صفتها «وجعلتها سلوتي في خلوتي وجلوتي» (خطط الشام ٦: ٣٣٨).

وقد كتب في وصف سياحته خمسًا وثلاثين مقالة (بينها خطاب ومحاضرة)، ولاسيما في وصف عاصمة فرنسا، وطبع هذه المقالات في كتاب سماه «غرائب الغرب»، ويقول الأستاذ محمد كرد علي في صفته «وما هو في الحقيقة إلا غرائب باريس ليس إلاّ» (طبع الكتاب في مطبعة المقتبس بدمشق سنة ١٩١٠م، ثم طبع طبعة ثانية بمصر (غرائب الغرب ١: ٣- ١٧١ سنة ١٩٢٣م) تحت عنوان: الرحلة الأولى.

وعاد الأستاذ محمد كرد علي بعد أن أقام بباريس ثلاثة أشهر إلى الآستانة عن طريق فيينا، بعد أن بُرّئ مما نسب إليه من تُهَم، ووصل إلى دمشق سنة ١٩١٠م وقد كان في وصف رحلته مثلاً للمصلح الكبير الذي جعل من أوصافه في كل مناسبة منطلقًا لدعوته الاصلاحية والنهوض بقومه.

وكان من المؤسسات التي زارها في رحلته مجامع باريس العلمية، فوصف مجمع فرنسا العلمي وتحدّث عنه في نحو ثلاث صفحات ختمها بقوله: «وحدثتني النفس ببلادنا الشرقية وقلت: هل يكتب لنا في المستقبل تأليف مثل هذه المجامع، فنعمل فرادى ومجتمعين كالغربيين، أو نظل كما نحن لا نعمل فرادى ولا مجتمعين» (غرائب الغرب ١: ١٠٦).

وكان الأستاذ محمد كرد علي، على كثرة أشغاله، يفكر دائمًا في الكتاب الذي كان يعدُّه: كتاب خطط الشام، وهو كتاب في مدنيّة الشام وتاريخه، وبعد أن قرأ له ما قرأ من الكتب باللغات الثلاث: العربية والتركية والفرنسية رأى أنه مازال محتاجًا إلى مراجع كثيرة لم يستطع الاطلاع عليها، (غرائب الغرب: ١: ١٧٢– ١٧٣)، وتطلع إلى معرفة ما حوته مكتبة الأمير (كايتاني) في رومة، وهي مكتبة «منقطعة النظير في الغرب نفسه»، فعزم على السفر لزيارتها، وسافر على باخرةٍ تقلُّه إلى رومة (سنة ١٩١٣م)، فعرّج في طريقه على القاهرة، ثم زار إيطاليا، وقضى وطره من مكتبة (كايتاني). يقول الأستاذ محمد كرد علي: «اشتغلت في خزانة الأمير ليوني كايتاني في رومية شهرًا كاملاً سنة ١٩١٣» (المذكرات١: ١٨٨)، ثم زار سويسرا وفرنسا والمجر والآستانة، مع وقفة قصيرة في أثينة. وكتب (٣٤) مقالة في وصف مدنيّة تلك

الممالك، ونشرت هذه المقالات في كتابه «غرائب الغرب (ط٢) ١: ١٧٢-٣٣٦» تحت عنوان: الرحلة الثانية.

وكان في وصفه لا يتوانى عن تحريك العواطف الوطنية، وتشويق قُرائه العرب ليخرجوا من عزلتهم، وليفيدوا من نهضة الغرب الذي سبقهم. إنه يحضُّهم على طلب العلم والجدّ في العمل، ويضرب الأمثلة على الفروق التي تفصل بينهم وبين الغرب، ويكفي أن تطالع مقالة (حياتنا والحياة الأوربية) التي ألقاها في المنتدى الأدبي في الآستانة (٢٠ شباط ١٩١٤) لتتبين نموذجًا حيًا لما يمور في قلب هذا الكاتب العظيم المصلح الذي يؤرّقه حال وطنه، فهو مندفع أبدًا لحفزه على النهوض.

وعاد الأستاذ محمد كرد علي إلى دمشق في ٢٢/ ٣/ ١٩١٤، وكان والي دمشق قد عطل جريدة المقتبس مجددًا، فاحتجبت عن الصدور ثمانية أشهر.

وقامت الحرب العالمية الأولى (١٩١٤- ١٩١٨) وكان الأستاذ محمد كرد علي قد ملّ العمل في الصحافة لكثرة ما لاقى من عنت وجور، وما فُرض عليه من أعمال في أثناء الحرب لم تستسغها نفسه، وقبيل نهاية الحرب قصد إلى الآستانة للتجارة، فمنعه الاتحاديون (خطط الشام ٦: ٣٤١)، وانتهت الحرب فعاد إلى دمشق، وكانت الحكومة الفيصلية العربية قد قامت في دمشق في ٥/ ١٠/ ١٩١٨، وبدأت تواجه المشكلات التي خلفتها الإدارة العثمانية، وما أكثرها، وفي طليعتها: تعريب الدواوين والإدارة والتعليم في المدارس، واستبدال المصطلحات العربية بالتركية، فاستعانت لذلك بأساتذة اللغة العربية وأدبائها المقيمين في دمشق، وغيرهم من الكتّاب والشعراء والأدباء الكفاة.

وأسست شعبة الترجمة والتأليف (٢٨/ ١١/ ١٩١٨- ١٢/ ٢/ ١٩١٩)، ثم توسعت فأنشأت ديوان المعارف (١٢/ ٢- ٨/ ٦/ ١٩١٩)، وأسندت رئاسته إلى الأستاذ محمد كرد علي الذي شمَّر عن ساعد الجدّ، وخطط لعمله، فأخذ بإصلاح المدارس على ما يلائم روح الأمة العربية، ونظر في بعض القوانين المتعلقة بالمعارف، وعُني بأساليب التربية الحديثة، ورفع شأن اللغة العربية، وأمثال ذلك. ولما تبدَّى له سعة العمل وكثرة المهامّ رأى ضرورة فصل أمور اللغة والمكتبات والآثار عن أعمال المعارف العامة، وأن يؤسس مجمع علمي يقوم بمهامها، فوافقت الحكومة، وصدر الأمر بتأسيس المجمع في ٨/ ٦/ ١٩١٩ وعُهد برئاسته إلى الأستاذ محمد كرد علي، واتخذ مقرًا له المدرسة العادلية. وكان اجتماع المجمع العلمي العربي الأول في المدرسة العادلية يوم ٣٠/ ٧/ ١٩١٩، بحضور الأعضاء الثمانية المؤسسين برئاسة الأستاذ محمد كرد علي، وانضمَّ إليهم الأستاذ طاهر الجزائري بعد عودته من الديار المصرية في تشرين الأول ١٩١٩م. كما اتخذ المجمعُ مدرسةَ الملك الظاهر مقرًا للمكتبة العامة، وأخذ يوثق صلاته مع المجامع والجامعات والمكتبات والمتاحف في الشرق والغرب.

ولم يكن بدّ من أن يواجه الأستاذ الرئيس جملة من المشكلات الصعبة، فعالجها بحكمة وروية، لأنه كان شديد الحرص على المجمع وقيامه بمهمته. وكان مجمع دمشق أول المجامع العربية، واستطاع أن يشارك المشاركة الجادة في تعريب التعليم العالي والدواوين ودوائر الحكومة والسجلات الرسمية ولغة المدارس، والصحافة، وما يتصل بذلك، وبذل جهوده لسلامة اللغة، ونفي العامي والدخيل منها. وقد نجح في عمله نجاحًا واسعًا لأن المؤسسات التربوية

والتعليمية والرسمية وأبناء الشعب كانوا صفًا واحدًا في هذا الاتجاه. وهذا سرّ التعريب السريع الذي رافق الاستقلال دون تباطؤ، فعلّمت الجامعة بكليتيها: الطب والحقوق، وهما الوحيدتان آنذاك، منذ العام الأول ١٩١٩، باللغة العربية، وعُرّبت الدواوين والمؤسسات في مدة وجيزة، وكذلك المدارس.

وأصدر المجمع مجلته في مطلع عام ١٩٢١م، وكان للأستاذ الرئيس أثره البارز في نجاح المجمع واندفاعه في عمله، وتغلّبه على الصعاب التي واجهته في طريقه، ومما قاله في تبيان مكانة المجمع في نفسه: «وشهد الله أني كنت أفكر في أنجع الطرق لإنجاحه ليل نهار، مدة توليتي رياسته، وما رأيت بابًا يوصلني إلى النهوض به إلا طرقته» (المذكرات ١: ٢٨٤).

وفي الحق أن الأستاذ الرئيس كان حركة المجمع العلمي الدائبة، كما كان راعيه وموجهه (المذكرات ١: ٢٧٧– ٢٨٦) حتى أقام هذا الصرح الشامخ الذي شهد ميلاد المجامع العربية الشقيقة، مجامع: مصر (١٩٣٢م) والعراق (١٩٤٧م) والأردن (١٩٧٦م). وتمّ إنشاء اتحاد المجامع اللغوية العلمية العربية عام ١٩٧١م، ثم انضم إلى الاتحاد مجمعا تونس والسودان (١٩٩٣م)، ومجمعا ليبيا وفلسطين (١٩٩٤م)، وانضمت أكاديمية المملكة المغربية التي تولي اللغة العربية جانبًا كبيرًا من عنايتها إلى الاتحاد عام ١٩٩٦م.

وإننا لنتطلع إلى غد مشرق تندحر فيه الهجمة الشرسة التي تواجهنا اليوم، من دعوة إلى اللهجات العامية، والبعد عن العربية السليمة، لصعوبتها في زعمهم، لتغدو اللغة العربية، كما كانت في عصرها الزاهر إحدى اللغات العالمية، وما ذلك على الله بعزيز.

* * *

ترك الأستاذ الرئيس محمد كرد علي جريدة طويلة من آثاره، تتضمن كتبًا مترجمة، ومقالات، ومؤلفات تاريخية وأدبية، وكتبًا محققة. وقد أغنى بها المكتبة العربية، وليس من همي أن أعدّدها جميعًا. وإني مكتفٍ بذكر جملة من كتبه:

منها كتابه: خطط الشام، يقول عنه الأستاذ الرئيس: «وهو كتاب في مدنية الشام وتاريخه، صرفت في تأليفه ثلاثين سنة، وطالعتُ لأجله زهاء ألفٍ ومئتي مجلد باللغات الثلاث: العربية والتركية والفرنسية، ويدخل في ستة مجلدات» (خطط الشام ٦: ٣٤٦).

ومن كتبه الشهيرة: الإسلام والحضارة العربية، وأمراء البيان، وكنوز الأجداد، وغوطة دمشق، والمذكرات وهي في أربعة أجزاء طبعت بين سنتي ١٩٤٨- ١٩٥١م.

وللأستاذ محمد كرد علي مقالة طريفة جعل عنوانها «كيف وضعت تآليفي» ونشرها في المذكرات ١: ٣٠٧- ٣٢٠/ ط ١٩٤٨م.

والحديثُ عن الأستاذ محمد كرد علي طويل واسع، ولا يسمح لي المقام أن أفيض في ذلك، وقد صدرت مؤلفات ومقالات تتحدث عنه وعن المجمع العلمي العربي الذي أقام قواعده، وشيد صرحه الشامخ، وفيها غنية للطالب والعالم.

لقد ظل يعمل ليل نهار لا يكفُّ ولا يتوقف، وتابع نشاطه وهو على فراش المرض في أواخر أيامه حتى وافته المنية يوم الخميس في الثاني من نيسان

١٩٥٣ وهو في السابعة والسبعين من عمره.

رحمه الله الرحمة الواسعة جزاء وفاقًا لما قدّم، وأسكنه فسيح جنانه مع الذين أنعم عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا.

وإني لأرجو أن أوفّق بعون الله لكتابة دراسة وافية لعلامتنا الجليل الأستاذ الرئيس عليه الرحمة والرضوان.